



يضم هذا الكتاب المتميز في مادته العلمية الغزيرة ترجمة وتعليقاً للأستاذ الدكتور
عبد الفتاح عوض لـ مجموعات من الدراسات الأندلسية الإخصبة كتبت باللغة الأسبانية،

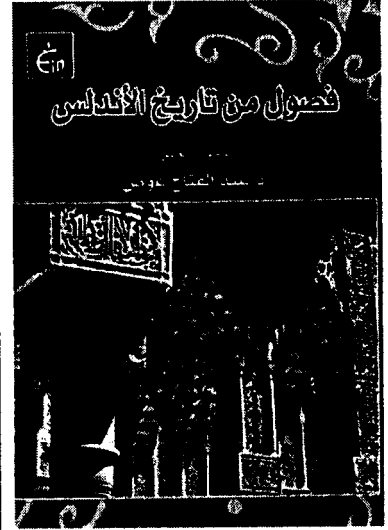
فصول من تاريخ الأندلس

وتناولت تسجيل تفاصيل كثيرة للأحداث والوقائع التاريخية للوجود العربي الإسلامي بالأندلس، الذي توطدت دعائم الحكم بها على أيدي رجالات السلطة الكبار.. الناصر.. والمستنصر.. والمنصور، وألقت تلك الدراسات الضوء على مراحل نمو وازدهار الحضارة الإسلامية وازدهارها بالأندلس.. ثم ما تبع ذلك من مظاهر تدهورها، وأقول نجمها بعد أن بلغت ذروة العمران وشموخه في القرن السابع الهجري "الثالث عشر الميلادي"، حيث اتسعت دائرة النشاط العلمي والتقدم الحضاري بكل أبعاده وأنماطه.

ومنذ بداية هذا القرن، حين أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة، عمل جاهداً على خلق كيان حضاري يطبع الأندلس بطابع خاص لتكون قوية ومستقلة وموحدة، ومنافسة أيضاً لمواضع الشرق الكبرى ولاسيما بغداد العباسية التي أخذ نفوذها وسلطانها يتقلصان يوماً بعد يوم، فكان على الأندلس الأموية أن تهين نفسها لتلعب الدور التاريخي، ولتصبح حاملة لواء الحضارة الإسلامية في هذا المكان من العالم.

نمو وازدهار ومحن ونكبات

عاشت الأندلس فترات من المحن والنكبات كان لها أسوأ الأثر على وجودها الحضاري العظيم، وامتدت تلك المحن إلى ٥ قرون كاملة، وكانت نكبة مدينة قرطبة.. في بدايات القرن الخامس



ترجمة وتعليق: د. عبد الفتاح عوض

الناشر: "عين" للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٩م

عدد الصفحات: ٢٨٥ صفحة

عرض: نبيل السماوي

التي شرحت تفاصيل دقيقة للأوضاع السياسية في تلك الفترة.

ويشير الدكتور عبد الفتاح إلى أهمية نقل رؤية هؤلاء الباحثين في تاريخ الحضارة الإسلامية في أسبانيا بصفة عامة وحضارة الأندلس بصفة خاصة، والمكتوبة باللغة الأسبانية، التي تتطلب جهوداً جماعية من المشتغلين في مجال الدراسات الأسبانية والأندلسية؛ لبيان كثير من الوقائع لتحليلها، ومقارنتها بما كتبه المؤرخون العرب.. وذلك إحقاقاً للحق لتوضيح فضل تلك الحضارة تاريخياً وسياسياً وفكرياً.

لقد كانت للكارثة التي ألمت بتلك الحضارة العظيمة التي تصدعت أركانها، وسقطت تحت أقدام خيل الملوك الكاثوليك، آثار شديدة التأثير مست الدين في معالمة الكثيرة في مساجده ومآذنه ومحاربه، ومست أيضاً كل معاهد النور والعلم، ومست الإنسان الأندلسي أيضاً من خلال ما تعرض له من مذابح وحشية ومجازر جماعية كانت تقيمها محاكم التفتيش للشيوخ والعجزة والأطفال والنساء، ولتصوير هول المأساة وعمقها، اختار مؤلف الكتاب بعضاً من الشعر الأندلسي الذي صور تلك المآسي والمشاعر الحزينة لقوم دمرتهم النكبات حيث كان لسقوط "طليطلة" أثر عميق في نفوس الأندلسيين عبر أحد الشعراء حزن عميق عن فقدان تلك المدينة العظيمة قائلاً:

وقيل تجمعوا لفراق دكلى

"طليطلة" .. تملكها الكفورُ

فقل في خطة فيها صفارُ

يشيب لكربها الطفل الصغيرُ

الهجري "الحادي عشر الميلادي" هي أول المنعطف الخطير الذي أصاب تلك الحضارة، الذي يمثل بداية النهاية التي يؤكدّها التاريخ، التي أشار إليها المؤرخ الكبير "ابن خلدون" بقوله: "إن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، فمتى توافرت أسباب موضوعية للانهايار في دولة ما، وأصبح أهلها غير قادرين على حمايتها، وضمن سير حياتها، سارع الخراب إلى تلك الدولة وحلت ساعة نهايتها..".

كانت بدايات نهاية حضارة الأندلس منذ القرن الحادي عشر الميلادي، حينما أخذت كثير من مدن الأندلس تسقط في أيدي الملوك الكاثوليك "فرناندو - وإيزابيل" رويداً رويداً، حتى انهارت آخر المدن الأندلسية "غرناطة".

ويشير المترجم إلى جهوده في ترجمة مجموعة من الدراسات الأندلسية التي كتبها نخبة من الباحثين باللغة الإسبانية، وقام بنقلها إلى اللغة العربية، وتدور تلك الترجمات حول حقيقة ظروف سقوط "غرناطة" والرسائل المتبادلة بين الأمير (أبو عبد الله)، والملوك الكاثوليك، وكذلك ترجمة لرحيل أبي عبد الله مع أسرته وكبار أتباعه من الأندلس.. لبعض الباحثين أمثال الباحثة "ماريا دل كارمن بيسكادور ول أوبو"، والباحث "مانويل جاسبار رميرو"، وكذلك ترجمات أخرى عن فترة بداية الانشقاقات لابن مروان الجليقي - ومملكة المنذر، وتطور حركة الثورة في الأندلس، وانهايار السلطة الملكية تحت حكم الأمير عبد الله - وإمارة ابن الحجاج للباحثين "ليفي بروفنسال" - "رامون مينيديث بيدال"، وغير تلك الترجمات لكثير من الباحثين

شهدت الحضارة الإسلامية

بالأندلس ازدهاراً ونموً كبيراً بلغ ذروته في القرن السابع الهجري باتساع دائرة النشاط العلمي والتقدم الحضاري بكل أبعاده



الأندلس، ونشير في الأسطر القادمة إلى بعض المعالم الرئيسية لكل دراسة، تاركين للباحث الفحص الدقيق، حيث جاءت الدراسة الأولى تحت عنوان "التمرد والثورة في الأندلس.. بداية الانشقاقات" لابن مروان الجليقي في إقليم ماردة بقلم "ليفي بروفستال، رامون مينيتديث بيدال، أمبليو جارثيا جوميث".

خصص المترجم لهذه الدراسة ٨٢ صفحة من الكتاب، جاءت بها تفاصيل أحوال إقليم ماردة عاصمة الثغر الأدنى وتمرده ضد السلطات الأموية، وقد قمعه الأمير محمد الأول على الفور، ثم ظهور ابن مروان الجليقي على الساحة السياسية، وإعلان نفسه بطلاً للاستقلال في غرب الأندلس، وتفاصيل الصراع بينه وبين محمد الأول، ثم تولي الأمير عبد الله السلطة وبين المنذر وابن حفصون ومحاصرة قلعة "بيشتر"، واستسلام "أرشيدونه" وعصبة الثورات، وانهايار السلطة الملكية تحت حكم الأمير عبد الله ٨٨٨ - ٩١٢م، هذا وقد اتسمت سنوات حكم الأمير عبد الله الأربعة والعشرون بالتوتر والقلق.

لقد صمّ السميع فلم يعولُ

على نيا كما عمي البصيرُ

وكذلك قال صالح بن شريف المعروف بابي البقاء الرندي، باكياً على المدن التي وقعت في قبضة ملوك الكاثوليك، ومنتقداً أولئك الراتمين وراء البحر في دعة:

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ

فلا يُقرّ بطيب العيش إنسانُ

هي الأمور كما شاهدتها دولُ

من سره زمن ساءته أزمانُ

وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ

ولا يدوم على حال لها شأنُ

يمزق الدهر حتماً كل سائفةٍ

إذا تَبَّتْ مشرفيات وخرسانُ

وينتضي كل سيف للغناء ولو

كان ابن ذي يزن والغمد غمدانُ

لقد نظم كثير من الشعراء شعراً تمزق كلماته وصوره القلوب حزناً على فقدان الأندلس، منهم الفقيه ابن الدقون، وابن عبد الله العربي العقيلي، وأبو جعفر بن خاتمة الذي نظم مرثية طويلة في أثناء سقوط غرناطة عام ٩٠٤م.

والمتصفح لأوراق كتاب "فصول من تاريخ الأندلس"، يدرك مدى الجهد الذي بذله في ترجمة الدراسات المشار إليها، ونقلها من الأسبانية إلى العربية، التي تمثل رصيذاً تاريخياً قابلاً للزيادة بجهود عديد من الباحثين، المهتمين بتاريخ الأندلس وحضارتها الإسلامية الفريدة.

٨ دراسات مكتوبة بالأسبانية

تناول المترجم ثماني دراسات مكتوبة باللغة الأسبانية تكون صوراً لأحداث تلك النكبات المتوالية التي أصابت الحضارة الإسلامية في

خصال الأمير عبد الله

ووصف الباحث خصال الأمير عبد الله، فقال: إنه تولى الحكم وهو في سن ٤٤ عاماً، وكان معتدل الذوق لا يتطلع إلى البذخ، ولا يقرب الخمر، وتميز بفصاحة وثقافة واسعة، وكان على دراية بالعلوم الدينية، ويتلو كل يوم جزءاً من القرآن الذي كان يحفظه، وكان يحلو له تلقي الشكاوى التي يقدمها له أهل قرطبة ضد عمليات التعسف في استخدام السلطات من جانب موظفيه، وحسب رأي الفقهاء كان يتمتع بكل الخصال الحميدة، وأوضحت الدراسة النزاعات السياسية الحادثة في تلك الفترة، التي أدت إلى تجزئة الوحدة السياسية، والنزاع بين العرب والمولدين في محافظة البيرة، واتحاد تجارة بجانة في نهاية القرن التاسع، والنزاع بين العرب والمولدين في إقليم إشبيلية، وإمارة ابن الحجاج، وكذلك نشاط ابن حفصون تحت حكم مملكة الأمير عبد الله، والموقف في الثغور في نهاية القرن التاسع.

المنذر وعمر بن حفصون

وانتقل المترجم إلى ما كتبه "لويس سواريث فرنانديث" في شأن شخصية المنذر وعمر بن حفصون، وأحوال الأقاليم الأندلسية شارحاً انقسام الأندلس في عام ٨٨٩م إلى دويلات الطوائف: ابن مروان في "بطلوس"، وموسى بن ذي النون في "طليطلة"، محمد بن لوب في "سرقسطة"، وعمر بن حفصون في "بيشتر وجبال مالقة"، وعبيد الله بن ياسر في المغرب، وقد كانوا يتحركون كقادة حقيقيين مستقلين.

وفي خضم هذه الفوضى السائدة بدأت بعض النزاعات القديمة تثار بين القبائل العربية،

وبخاصة محاولات الوصول إلى مواجهة مباشرة بين المسلمين القدامى والجدد، ومن أجل هذا أصبح مستقبل الإسلام في أسبانيا في مهب الريح، وفيما يبدو أن التقسيم كان نتيجة لغضب المولدين بصفة خاصة، وكان عمر بن حفصون يحرك بمهارة وذكاء كل هذه الحجج والأسانيد، حتى أصبح في عيونهم بطلاً قومياً.

وأورد المترجم تحليلات لبعض جوانب شخصية عمر بن حفصون ونشاطه، نقلاً عن الباحثين الأسبان، أمثال: دوزي، سيمونيه، كاجيجاس، ليفي بروفتسال، حيث يؤكد كل هؤلاء المؤلفين أن عمر بن حفصون مات متمرداً على قرطبة، وأنه بطل القومية الأسبانية، وأنه مات ودفن بوصفه مسيحياً طيباً.

كما أورد عن شخصية ابن حفصون ما جاء في كتاب "المقتبس"، الجزء الثالث، بأنه يوصف "باللعين"، و"الخبث"، و"الطاغية"، "جرثومة النفاق"، "عدو الله"، "عميد المخالفين"، "عميد أهل الضلال".

تفاصيل ثورة عمر بن حفصون وتمرده

واحتوى الكتاب على بعض المعلومات التي ذكرها "خواكين بالبيه"، التي تُرجمت إلى اللغة العربية، تدور حول تفاصيل ثورة عمر بن حفصون وتمرده وكذلك أولاده، وتحديد مكان قلعة بيشتر، التي تعتبر مركز التمرد الذي قام به، وتحديد بداية نشاطه في ٥ أغسطس عام ٨٨٠- أغسطس ٨٨١م، الذي هزم خلاله القوات الأموية بالكامل، واستمر التمرد خلال سنوات: ٩٢٣، ٩٢٧، ٩٢٨ وما بعدها، وقد أشار مؤلف الكتاب إلى أن من بين المشكلات المهمة التي طرحها تمرد عمر بن حفصون وثورته أمام المؤرخين المشكلة

**عاشت الأندلس فترات من المحن والنكبات
أثرت على وجودها الحضاري، وكانت نكبة
مدينة قرطبة في بداية القرن الخامس
الهجري هي بداية النهاية للوجود
الإسلامي في الأندلس**



غرناطة، ومذكرة أخرى بكل ما يطلبه القارئ أبو القاسم المليح من طرف ملك غرناطة هذا إلى جانب مذكرة بالآشياء التي أثبتت وجرى الموافقة عليها، بناء على أمر السادة الملوك الكاثوليك مع مولاي أبي عبد الله ملك غرناطة، فضلاً عن الأشياء التي جرى إثباتها والموافقة عليها بموجب كتابة شروط الاتفاقية عند تسليم مدينة غرناطة المذكورة، مؤرخ في مخيم دي لايجا بغرناطة في عام ١٤٩٠م.

وتعد هذه الرسائل المتبادلة ذخيرة ضخمة ذات أهمية عظمى للباحثين الجدد في أمر العلاقات بين الأمراء والقادة العرب، والملوك الكاثوليك، إذ يتكشف لدى الباحثين كثير من الحقائق حول عادات الحرب والسلام وتقاليدهما بين الطرفين للاستفادة من تلك التجربة القاسية التي تعرضت لها القوى العربية لمواجهة تجارب المستقبل القريب والبعيد.

وعن رحيل أبي عبد الله مع أسرته وكبار أتباعه من الأندلس، استند المترجم إلى ما كتب مانويل جاسبار روميرو، مشيراً إلى أن الملوك الكاثوليك كانوا يرغبون بشدة في أن يفادر

التي كانت - وما زالت - تتعلق باسم القلعة المشهورة "قلعة بيشتر" - أن الروايات المتعددة للاسم والمنطق الصوتي المتباين غير المؤكد أو غير الموجود، الذي يرد في المصادر العربية يتطلب القيام بدراسة نقدية واعية لهذه المصادر، في محاولة لتحديد الشكل الصحيح، ويجب مواجهة هذه المصادر في المخطوطات الأصلية للوصول إلى هذه النتيجة، حيث وعد المؤلف بالقيام بهذا العمل في المستقبل القريب.

وفي الفصل المعنون باسم "كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة؟" .. استند المؤلف إلى دراسات "ماريادل كارمن بيسكادور دل أويو"، التي جاء بها: كان للمصادفة وحدها أن تقع في يدي وثيقة مجهولة وغير منشورة حتى الآن، تلك الوثيقة التي وضعتني على أول الطريق للتحقق الكامل من كيفية تسليم قلعة غرناطة للملوك الكاثوليك، هذا إلى جانب ذكر العديد من الوثائق التي أوضحت الكثير من التفاصيل في هذا الفصل من الكتاب، التي تشير إلى خطوات تسليم غرناطة، والاستسلام الرسمي والحوادث المتعلقة بالأسرى ورفع الصليب والبيارق وأفعال وتصرفات الملوك الكاثوليك بعد ذلك.

أرشيف إيرناندودي نافرا

وأفصح المؤلف عدداً من صفحات الكتاب تبلغ أكثر من ٥٠ صفحة لنصوص الرسائل المتبادلة بين الأمير إلى عبد الله والملوك الكاثوليك.

وهي واردة من أرشيف إيرناندودي نافرا، وجاءت تلك النصوص شاملة للتفاصيل الدقيقة، والاتفاقات بين الطرفين، كذلك مذكرة بالآشياء التي طلبها ملك غرناطة، وقادته عند تسليم

وكان هيرناندو دي نافرا طرفاً من سادته الملوك الكاثوليك، ومحور المفاوضات الأخيرة، هذا وقد شهدت الأعوام ١٤٩٢ - ١٤٩٣م العديد من الأحداث الكبار التي أشار إليها هيرناندو دي نافرا، والأدوار التي قام به القيسي خادم أبي عبد الله وكذلك المليخ، وبعد العديد من الاتفاقيات والتمهيدات بين الطرفين (أبي عبد الله - والملوك الكاثوليك) جرى التصديق على الاتفاقية الخاصة برحيل أبي عبد الله وأتباعه في ١٥ يونيو ١٤٩٣م والتوقيع عليها باسمهم.

التطلع إلى غزو المواقع والموانئ الأفريقية

وأشار المترجم إلى أنه من المؤسف للملوك الكاثوليك في هذه الفترة أنهم لم يكونوا سعداء بإنهاء وجود المملكة الإسلامية في غرناطة وحسب، وإنما كانت تطلعاتهم إلى السواحل الأفريقية، وبدأت تداعبهم فكرة القيام بنبض الغزوات والهجمات الفورية على بعض المواقع أو الموانئ الأفريقية، وظهر التنافس لدى ملوك البرتغال، حيث بدت رغبتهم في اجتياح جزء من منطقة المغرب العربي من عهود سابقة في إطار القمع والعقاب المفروض على القراصنة الأفارقة والأوربيين الذين كانوا يعيشون فساداً، وينشرون الرعب والهلع على السواحل الأندلسية.

وبعد، فإن الدارس لهذا الكتاب "فصول من تاريخ الأندلس" يتبين له مقدار الجهد الذي بذله المترجم وإطلاعه على العديد من الوثائق والمراجع المتنوعة في هذا الموضوع، حيث جاء الكتاب جامعاً للعديد من الحقائق التاريخية الخسبة التي تفتح مجالات جديدة لاستكمال دراسة تلك الحقبة التاريخية المهمة في حياة المسلمين في الأندلس بصفة خاصة، ودراسة علاقة الشرق بالغرب بصفة عامة. ■

أبو عبد الله شبه الجزيرة الأيبيرية، وأن يذهب فيما وراء البحار، وفي واقع الأمر كان الملوك الكاثوليك بحصانتهم وحكمتهم الدبلوماسية قد وصلوا إلى تنفيذ بنود اتفاقية تسليم غرناطة وأراضيها بالشكل الذي يسمح للملك أبي عبد الله وأفراد عائلته وأتباعه الكبار والصغار بالذهاب إلى ما وراء البحار - إذا رغبوا في ذلك - إلى الإسكندرية أو تونس أو وهران أو فاس، وأنهم في إمكانهم بيع ممتلكاتهم التي في حوزتهم، وأن تكون الأولوية لأصحاب الجلالة في الشراء، وأنهم في هذه الحالة سوف يرسلون إليه قيمتها في أي وقت يشاء، وأن تجهز له السفن ووسائل النقل دون تحميله أي رسوم نقل أو شحن؛ حتى يمكنه نقل الأشخاص وكل ما يخصه من ملابس وبضائع وجواهر وحيوانات وأسلحة، على ألا تكون أسلحة تعمل بالبارود، سواء كانت صغيرة أو كبيرة.

وأصدر أصحاب الجلالة أوامره بأن يذهبوا في أمان وكرم وعزة وحماية، وأن يضمن حسن معاملتهم في أي ميناء من الأماكن المشار إليها.

وكان الهدف السياسي الذي اتبعه الملوك الكاثوليك هو الاهتمام بمغادرة أبي عبد الله شبه الجزيرة الأيبيرية في أقصر وقت ممكن؛ حتى يحل السلام في مملكة غرناطة، وأن تتجانس سياسياً ودينياً.

وبعد استسلام مدينة غرناطة تحت سلاح الملوك الكاثوليك، ظهرت على السطح مفاوضات جديدة مطولة وثقيلة قام بها الأشخاص أنفسهم الذين تدخلوا في عملية الاستسلام للمدينة، وأديررت هذه المفاوضات الجديدة بالحكمة والدهاء نفسيهما.